الإفخارستيا

عشاء الرب

بحث في الأصول الأُولى لليتورجيا
ومدخل لشرح القداس وتطوُّره من القرن الأول حتى عصرنا الحاضر

للأب متى المسكين



الإفخارستيا - مفهوم الكلمة وسرها
الإفخارستيا والإنسان الجديد

Pages (37 - 49)

Published by Dr Adel Ezzat

الإفخارستيا في مفهوم المسيح

كما قال المسيح لنيقوديموس بخصوص الميلاد من فوق:

+ «إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله! »(يو 3:3)

ولَّما تعثَّر نيقوديموس في الوسيلة، بسَّطها له على مستوى الزمان والمكان فقال:

+ «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو 5:3)

هكذا بالنسبة للإفخارستيا

إن كان أحد لا يقبل الحياة من فوق، لا يقدر أن يعاين الحياة الأبدية.

فلمَّا تعثَّر الإنسان في الوسيلة، بسَّطها المسيح على مستوى الزمان والمكان فقال:

+ «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي (الإفخارستيا) فله حياة أبدية وأنا أُقيمه في اليوم الأخير.» (يو 54:6)

وعاد فأوضحها:

+ «مَنْ يأكلني فهو يحيا بي.» (يو 57:6)

+ «أنا هو الخبز الحي (المسيح) الذي نزل من السماء. إن أكل أحدٌ من هذا الخبز يحيا إلى الأبد.» (يو 51:6)

متى المسكين

الأحد الثاني من الخمسين المقدَّسة

25/4/1999

الإفخارستيا
مفهوم الكلمة وسرّها

1 - مفهوم كلمة «سرّ»:

كلمة «سرّ» بالعربية أصلها اليوناني
must»rion
وهي تعني الشيء المخفي أو المستور
ولو أنه يفيد نفس المعنى، إلاّ *Sacramentum* والمرادف اللاتيني أنه في أصله يحمل اتساعاً أكثر، فهو يفيد معنى وثيقة على مستوى عالٍ ذات قيمة قضائية، أو خدمة إلهية على مستوى الكنيسة.

أمَّا في المفهوم اللاهوتي، فكلمة «سر» وجمعها «أسرار» أو «سرائر» تفيد حقيقة أو حقائق إلهية ثابتة ومستقرة كانت مخفية ومكتومة منذ الدهور، لأنها كانت فائقة على قدرة الإنسان العقلية، أو أعلى من مستواه الروحي أو أكثر من حاجته، ثم أعلنها الله بروحه لأنبيائه ورسله وقديسيه ثم للكنيسة، وذلك إما بوحي إلهي أو إلهام في رؤيا أو بسمع الأذن أو بانفتاح الذهن أو بتلقين الروح، أو كأمر ووصية صريحة واضحة بتسليم محسوس كما صنع المسيح مع تلاميذه في العشاء الرباني.

والأسرار عموماً حقائق تختص بالله، إما في ذاته، كسرِّ الثالوث ويسمَّى سر اللاهوت؛ وإمَّا في علاقته بنا كسرِّ التجسُّد والفداء ويُسمَّى سر التدبير الإلهي؛ وإمَّا في اتحادنا به كسرَّي المعمودية والإفخارستيا مع بقية أسرار الكنيسة المعروفة بأسرار الكنيسة السبعة(1).

() أول مَنْ حدَّد عدد الأسرار الكنسية بالرقم 7 (سبعة) هي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بواسطة أسقف باريس «بطرس لمبارد» مع غيره، وقد قبلها توما الأكويني، وقنَّنها بعد ذلك مجمع فلورنسا (سنة 1439م). وقد أخذت الكنيسة البيزنطية هذا التقليد عن الكنيسة الكاثوليكية - *(Oxford Dict. of Christ. Church, p. 1198.)*، ثم دخل هذا التقليد إلى الكنيسة القبطية. وأول ذكر لها تحت أيدينا هو ما ورد في المخطوطة المعروفة باسم «نزهة النفوس» وهي لكاهن مجهول، وأقدم مخطوطة لها معروفة لدينا هي الموجودة بدير أنبا مقار (لاهوت 24) بتاريخ برمهات / مارس - أبريل 1564م. ولكن يُظن أن مؤلِّف كتاب «نزهة النفوس» ليس قبطياً أرثوذكسياً لأنه يورد أقوالاً ليوحنا الدمشقي (وهو من آباء الكنيسة البيزنطية في القرن الثامن بعد الانشقاق الذي حدث في مجمع خلقيدونية عام 451م).

وعلى أي حال لم نجد ذكراً لتحديد أسرار الكنيسة بالعدد سبعة في مخطوطة العالِم ابن كبر المعروفة باسم «مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة»، وهو أهم وأدق مَنْ كتب في الأسرار في القرون الأخيرة، وحتى لم يذكرها مجموعة معاً، بل جاءت في كتابه ناقصة عن العدد سبعة ومتفرقة على مدى الكتاب. عِلما بأن هذا العالِم عاش حتى إلى أوائل القرن الرابع عشر.

هذا بالإضافة إلى أسرار
أخرى لم تأخذ تحديدها اللاهوتي أو مواصفاتها بالكامل مثل
«سر الإنجيل» (أف 19:6)، و «سر ملكوت الله» (مر
11:4)، و «سر الإيمان» (1تي 9:3)،و«سر التقوى»
(1تي 16:3).
وقد أعطى المسيح للكنيسة في أشخاص الرسل القديسين
وأنبياء العهد الجديد استعلان أسرار الله المخفية منذ الدهور
بحكمته الفائقة وتدبيره بالروح القدس لخدمة الدهور كلها
حسب قول القديس بولس الرسول:

Eph 6:19

وَلأَجْلِي، لِكَيْ يُعْطَى لِي كَلاَمٌ عِنْدَ افْتِتَاحِ فَمِي، لِأُعْلِمَ جِهَاراً بِسِرِّ الإِنْجِيلِ،

Mar 4:11

فَقَالَ لَهُمْ: «قَدْ أُعْطِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا سِرَّ مَلَكُوتِ اللَّهِ. وَأَمَّا الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَارِجٍ فَبِالأَمْثَالِ يَكُونُ لَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ

1Ti 3:9

وَلَهُمْ سِرُّ الإِيمَانِ بِضَمِيرٍ طَاهِرٍ.

1Ti 3:16

وَبِالإِجْمَاعِ عَظِيمٌ هُوَ سِرُّ التَّقْوَى: اللهُ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ، تَبَرَّرَ فِي الرُّوحِ، تَرَاءَى لِمَلاَئِكَةٍ، كُرِزَ بِهِ بَيْنَ الأُمَمِ، أُومِنَ بِهِ فِي الْعَالَمِ، رُفِعَ فِي الْمَجْدِ.

+ «إن كنتم قد سمعتم بتدبير نعمة الله المعطاة لي **لأجلكم**، أنه **بإعلان عرَّفني بالسر** الذي بِحَسَبه حينما تقرأونه تقدرون أن **تفهموا درايتي بسر المسيح**، الذي في أجيال أُخَر لم يُعرَّف به بنو البشر كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح.» (أف 3: 2-5)

وقد استلمت الكنيسة هذه الأسرار جميعاً: ما هو لاهوتي وما هو كنسي، واستودعتها قلب قديسيها ومختاريها من جيلٍ إلى جيل بالتسليم من أساقفة وكهنة، وصارت الكنيسة غنية جداً بأسرار المسيح الفائقة ومؤتمنة وكارزة ليس للبشر فقط بل ولدى السماء أيضاً لإعلان هذه الأسرار:

+ «لكي يُعرَّف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السمويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة حسب قصد الدهور الذي صنعه في المسيح يسوع ربنا.» (أف 3:10)

ولكن، ومن القديس بولس الرسول أيضاً، نعلم علم اليقين أن «**سر المسيح**» هو من العمق والامتداد بما لا يمكن أن يُستقصى. فالأسرار هي ذخيرة الله التي لا تُحدُّ ولا تُضبط بلفظٍ، ولا تُستنفذ:

+ «لي أنا أصغر جميع القديسين أُعطيت هذه النعمة أن أُبشِّر بين الأمم بغنى المسيح الذي لا يُستقصَى، وأُنير الجميع فيما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور في الله.»
(أف 3: 8و9)

ولكن يلزم أن نفرِّق بين أسرار اللاهوت والتدبير (أي سر الثالوث الأقدس وسر التجسُّد والفداء) وبين أسرار الكنيسة. لأن أسرار الكنيسة تقوم على ممارسات عملية بالصلاة للتقديس تُستخدم فيها وسائط حسيَّة منظورة: كالماء في المعمودية، والزيت في التثبيت، والخبز والخمر الممزوج بالماء في الإفخارستيا، والزيت في مسحة المرضى، ووضع اليد بالصليب في الكهنوت، وفي التوبة، وفي الزيجة.

وهكذا يُعتبر السرُّ الكنسي عملاً مقدَّساً يتم بالصلاة واستخدام وسائط حسيَّة منظورة تنال من خلالها النفس البشرية نعمة الله ومواهبه غير المنظورة.

وقد عرَّف القديس أغسطينوس السر الكنسي هكذا: [الشكل المنظور لنعمة غير منظورة.](12)
ومعروف أن أسرار الكنيسة مُسلَّمة لنا من المسيح كما هي، مثل سر الإفخارستيا الذي أكمله الرب بكل دقائقه في عشاء يوم الخميس، الذي من خلال الخبز والخمر الممزوج وهبنا جسده ودمه لغفران الخطايا ولحياة أبدية.

12 قاموس أكسفورد للكنيسة المسيحية - ص 1198.

ولكن الذي يتحتم علينا أن نعرفه ونقبله هو أنه توجد علاقة حيَّة شديدة بين سر الثالوث الأقدس (سر اللاهوت) وسر التجسُّد والفداء (سر التدبير الإلهي) وبين أسرار الكنيسة بوسائطها المنظورة. فخبر الإيمان (بالثالوث) يتحتم أن يدخل اختبار الفعل والعمل حسب قول المسيح: «مَنْ آمن واعتمد (باسم الآب والابن والروح القدس) خلص» (مر 16:16)، والإيمان الفكري بالتجسُّد يتحتم أن يدخل أعماق الكيان البشري بالتناول من جسد الرب. والثقة الإيمانية بالفداء بالدم على الصليب يتحتم أن تُمارَس عملياً بشرب هذا الدم في الإفخارستيا.

والوحدة التي علَّمنا الرب أن نطلبها لأنفسنا بالصلاة وبالإيمان في دالة الحب الشديدة والثقة فيه بقوله: «اثبتوا فيَّ» والتي يصلِّي أيضاً عنَّا للآب قائلاً: «**ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا**» و«**ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد**» و «**أنا فيهم** وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد» (يو17: 21-23)؛ هذه الوحدة الحقيقية الحية مع الرب يسوع المسيح تتم بصورة عملية في الأسرار وبالأخص في الإفخارستيا، بفعل خفي أي سرائري غير منظور ولا محسوس، بقوة سمائية من فوق بالروح القدس، كقول الرب لنيقوديموس بخصوص المعمودية، وكقول الرب لليهود بخصوص الإفخارستيا: «جسدي مأكلٌ حقٌّ، ودمي مشربٌ حقٌّ، مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه.» (يو 6: 55و56

Joh 17:21

لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِداً كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي.

Joh 17:22

وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ.

Joh 17:23

أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي.

Joh Joh 6:55

لأَنَّ جَسَدِي مَأْكَلٌ حَقٌّ وَدَمِي مَشْرَبٌ حَقٌّ.

Joh 6:56

مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ.

والقديس يوحنا ذهبي الفم يوضِّح ذلك هكذا:

[إنه يلزم أن نفهم عجب هذا السر، وما هو، ولماذا سُلِّم لنا، وما هي المنفعة من ممارسته، لأننا نصير جسداً واحداً وأعضاءً من لحمه وعظامه - كما قيل - وهذا يتم بالأكل، الذي سلَّمه لنا مجاناً كهبة ... لأنه هيأ جسده على مستوانا لنتحد به كما يتحد الجسد بالرأس.]

(على إنجيل يوحنا، عظة 46)

2 - مفهوم كلمة «إفخارستيا» EÙcarist…a:

1 - كلمة إفخارستيا تعني باليونانية عموماً «الشكر» أي الإحساس (مجرد إحساس) بالشكر أو المسرة كما جاءت قديماً: (أ) في سفر المكابيين الثاني (27:2)، (ب) في ابن سيراخ (11:37)، وكما جاءت حديثاً - في سفر الأعمال (3:24):

Act 24:3

«إِنَّنَا حَاصِلُونَ بِوَاسِطَتِكَ عَلَى سَلاَمٍ جَزِيلٍ وَقَدْ صَارَتْ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَصَالِحُ بِتَدْبِيرِكَ. فَنَقْبَلُ ذَلِكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ فِيلِكْسُ بِكُلِّ شُكْرٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَكُلِّ مَكَانٍ.

(أ) «ولكن لأجل **شكر** eÙcarist...an (مسرَّة) الكثيرين، نتحمَّل بسرور هذا العناء الكبير.» (2مك 2:27)

(ب) «لا تتشاور مع إنسان حاقد في كيفية **الشكر** eÙcarist...aj.» (ابن سيراخ 37:11)

(ج) «فَنَقبل ذلك أيها العزيز فيلكس **بكل شكر** met¦ p£shj eÙcarist...aj في كل زمان وكل مكان.» (أع 3:24)

Act 24:3

«إِنَّنَا حَاصِلُونَ بِوَاسِطَتِكَ عَلَى سَلاَمٍ جَزِيلٍ وَقَدْ صَارَتْ لِهَذِهِ الأُمَّةِ مَصَالِحُ بِتَدْبِيرِكَ. فَنَقْبَلُ ذَلِكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ فِيلِكْسُ بِكُلِّ شُكْرٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَكُلِّ مَكَانٍ.

2 - ولكن كلمة «إفخارستيا» استُخدمت أيضاً بمعنى **«تقدمة شكر»**، أي شكر معبَّر عنه بتقدمةٍ ما سواء كان ذلك بالتسبيح أو بالصلوات أو بالذبائح(13). وقد استُخدمت كلمة «إفخارستيا» (كصلاة) بنوع مخصوص في حالة « شكر الله على خلقة العالم» فكل صلاة مقدَّمة لله فيها شكر من أجل خلقة العالم كانت تسمَّى «إفخارستيا» وهذا التعبير يهمنا جداً لأن **القديس** إيرينيئوس(14) **يعتبر أن من الأهداف الأساسية «لسر الإفخارستيا» هو شكر الله بلسان الخليقة من أجل خلقة العالم وبركاته للإنسان.**

(13) Philo, *De Victimis*, C. 9, C. 4.
(14) Irenaeus, *Haereses*, IV. 18, 4.

3 - أما في الكنيسة فتُخصَّص كلمة «إفخارستيا» للتعبير عن سر الجسد والدم كتقدمة عموماً أو للتعبير عن مواد السر «التقدمة» - أي خبز الإفخارستيا وخمر الإفخارستيا.
4 - ولكلمة «الإفخارستيا» مشتقات طقسية تتعلّق بعمل الليتورجيا، منه الفعل «إفخارستين » eÙcariste‹n ومشتقاته: فالفعل «إفخارستين» استخدمه المسيح عندما أمسك بيده الكأس المملوءة خمراً ممزوجاً بماء: «ثم تناول كأساً وشكر "إفخاريستيساس eÙcarist»saj".» (لو 17:22)
كما استخدمه المسيح أيضاً عندما أخذ خبزاً على يديه: « وأخذ خبزاً وشكر "إفخارستيساس eÙcarist»saj".» (لو 19:22)

Luk 22:17

ثُمَّ تَنَاوَلَ كَأْساً وَشَكَرَ وَقَالَ: «خُذُوا هَذِهِ وَاقْتَسِمُوهَا بَيْنَكُمْ

Luk 22:19

وَأَخَذَ خُبْزاً وَشَكَرَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً: «هَذَا هُوَ جَسَدِي الَّذِي يُبْذَلُ عَنْكُمْ. اِصْنَعُوا هَذَا لِذِكْرِي».

ولكن كلمة «وشكر» هنا لا تفيد مجرَّد أنه شكر، بل إنه فَعَل فِعْل الشكر الطقسي، أي **أدَّى وقدَّم الشكر من أجل الخليقة وبركة الله لها الخاصة بهذا الموقف**. وهذا كان يعمله التلاميذ، ثم مَنْ تسلَّموا منهم في القرن الثاني والقرنين الثالث والرابع إذ كانوا يتلون صلاة شكر خاصة على الخبز والخمر، كما يعرِّفنا بذلك القديس الشهيد يوستين، وكما جاء في تعاليم الرسل وقدَّاس سيرابيون - كما سيأتي بعد

5 - ولكن في علم اللاهوت الإفخارستي يُعرف أن فعل « إفخارستين» أي فعل الشكر الذي قدَّمه المسيح على الخبز والخمر والذي كان يمارسه التلاميذ، أصبح يُقيَّم كعمل تقديس(15). فعندما شكر المسيح على الخبز والخمر أو عندما كان يعمل التلاميذ ذلك، فهو بمثابة **«قدَّس»** أو **«بارك»**. وفي هذا يوضِّح لنا القديس الشهيد يوستين أنه بمجرد أن يتلو رئيس الإفخارستيا الشكر على الخبز والخمر الممزوج بالماء يصيران في الحال **مادتي إفخارستيا** **(يتحولان)**، أي يصير الخبز تقدمة (ذبيحة) إفخارستيا والخمر تقدمة (ذبيحة) إفخارستيا(16).

(15) Grimm, *Lexicon New Test.* s. v.

(16) Justin Martyr, *Apol.* I. 65.

أمَّا في الكنيسة الأرثوذكسية الآن «تقليد متأخر» فلا يصير تلاوة التقديس **ولا يتم التحوُّل هذا إلاَّ بعد حلول الروح القدس عليهما**، وذلك بعد تلاوة الشكر والبركة والتقديس مع الرشومات.

ويوضِّح أيضاً القديس يوستين الشهيد أن الشكر الذي يُتلى على الخبز والخمر هو **«شكر الله على بركات الخليقة والفداء»**، وهو مضمون صلاة الشكر التي كانت تُقال على كلٍّ من الخبز والخمر.

وباختصار، نفهم من كلام القديس يوستين أنه: [بعد **«فعل» الشكر** على الخبز والخمر يتم **«سر» الشكر** مباشرةً، أي بعد سرّ **«الإفخارستين»** يصير الخبز والخمر **إفخارستيا**]. وقد اقتصرت على ذلك الكنيسة اللاتينية في الغرب حتى الآن، أمَّا في كنائس الشرق عموماً فيتحتم استدعاء الروح القدس بعد الشكر للحلول على الخبز والخمر ليتم التحوُّل.

أي أن الخبز والخمر لا يصيران إفخارستيا (تقدمة شكر) بفعل رشومات التقديس والشكر فقط بل باستجابة هذا التقديس والشكر لفعل الروح وذلك باستدعاء الروح القدس وحلوله. ويؤيد ذلك بوضوح القديس إيرينيئوس الذي يقول:

[إن الخبز **بعد استدعاء الروح القدس** Epiclesis ليس بعد خبزاً ساذجاً بل **إفخارستيا** من شقين:

شق أرضي وشق سماوي.(17)

(17) Irenaeus, *Haeres*., IV. 18, 5.

ولكن الذي يهمنا من هذا الآن هو كلمة **«إفخارستيا»**
التي تعني هنا سرًّا مقدَّساً،
والتي أخذت مضمونها السرِّي والقدسي أو بالحري الإلهي
من فعل الشكر أي «الإفخارستين» الذي يُتلى على الخبز
والخمر، ومن قبول هذا الشكر بحلول الروح القدس
وتحويل الخبز والخمر إلى مادتي الإفخارستيا.

6 - والمعروف أن التقليد المنحدر إلينا من القديس إيرينيئوس والقديس يوستينوس الشهيد يشير أيضاً إلى أن كلمة «إفخارستيا» التي أُطلقت على سر عشاء الرب لا تشتق هذا الاسم (الشكر) فقط من فعل الشكر - إفخارستين - الذي يُشكر فيه الله على بركات الخليقة وعلى الفداء، والذي يُتمَّم على مادتي الخبز والخمر، بل ويُشتق أيضاً من تقدمة ذات المادتين المختارتين في هذا السر - **أي خبز الحنطة وعصير الكرم - فهما يقدَّمان كصعيدة (أنافورا) وكتقدمة شكر لله مختارة عن كل الخليقة**

وكلمة «أنافورا» ليست مستحدَثة، فهي واردة في المزمور 19:51، وكلمة ¢nafšrein -وهي المصدر من ¢nafor£ -وردت في النسخة السبعينية للعهد القديم لتعطي معنى «تقديم الذبيحة» و «الأنافورا »اقتبستها الكنيسة في البدء على فم العلاَّمة أوريجانوس كاصطلاح عام يُفيد «إصعاد الصعيدة »،(18) ثم استخدمها كاتب قوانين الرسل بمفهوم «الصعيدة »ذاتها(19). وبعد ذلك استقرت الأنافورا الآن بمعنى الجزء الرئيسي الذي يقوله الكاهن في سر الإفخارستيا حيث تشمل البروسفورا، أي تقديم الصعيدة في البدء.

(18) Orig., *In Evang. John*, VI. 33, 34.
(19) *Apostolic Constitutions*, II, 59, 4; VIII, 47,3.

Psa 51:19

حِينَئِذٍ تُسَرُّ بِذَبَائِحِ الْبِرِّ مُحْرَقَةٍ وَتَقْدِمَةٍ تَامَّةٍ. حِينَئِذٍ يُصْعِدُونَ عَلَى مَذْبَحِكَ عُجُولاً.

والعلاَّمة أوريجانوس يشير إلى ذلك في ردِّه على ادعاءات «كِلْسُس »ضد المسيحيين على أنهم لا يشكرون الآلهة كما يليق، إذ يرد عليه أن المسيحيين **يعلنون شكرهم لله بتقديمهم الخبز المدعو إفخارستيا الذي يتحوَّل إلى جسد مقدَّس يقدِّس الذين يتناولون منه.**

وتقدمة الخبز والخمر يسميها القديس كلمندس الروماني «تقدمة عطايا» (dîron ذورون)، والدسقولية تسميها « ذبيحة » وإيرينيئوس ويوستين يسميانها «القربان الجديد الذي للعهد الجديد »و «باكورة ثمار عطايا الله »

والمدقق يلاحظ أن هناك ترابطاً مقصوداً بين تقدمة الخبز والخمر للتعبير عن الفداء ***الذي أكمله المسيح بجسده ودمه في سر الإفخارستيا***، بجانب التعبير عن شكر الله على ما أكمله من بركات الخليقة بواسطة الكلمة يسوع المسيح. ففي عمل عبادي واحد استطاع المسيح أن يسلّم للكنيسة الشكر الكامل عن أعمال كلٍّ من الخليقة والفداء معاً، وهكذا جمع بصلاة واحدة الرد البشري اللائق على كل أعمال الله ورحمته وعنايته بالإنسان. **ولذلك أصبحت الإفخارستيا مركز كل العبادة على الأرض كلها**، وقلب كافة الصلوات، وقمة التعبير الصادق عن علاقة الله بالإنسان، **وردَّ الإنسان بالشكر المستمر على تدبير الله القائم والدائم للخليقة كلها والعالم.**

ولذلك أيضاً نجد أن صلوات الإفخارستيا يتخللها كلها رنة فرح وتهليل سماوي باعتبارها تسبحة شكر متعددة الجوانب والاتجاهات، صادرة من فرحة الحياة الجديدة التي نالها الإنسان بالتجسُّد الإلهي الذي صار بواسطته تقديسُ الخليقة كلها وفداؤها مبتدَءاً بالإنسان.

والإفخارستيا هي ذبيحة التجسُّد!! فهي الجسد الإلهي المذبوح والدم الإلهي المسفوك الذي يعبِّر عن فداء **الخليقة كلها**، فالخليقة كلها تتبارك في ذبيحة الإفخارستيا، والعالم كله يتقدَّس، **والإنسان يُفدَى**. وفي الإفخارستيا، فإن بركات الخليقة ممثَّلة وقائمة بالحنطة والخمر والماء، والعالم كله ممثَّل وقائم بواسطة الكنيسة.

لذلك تحتَّم أن تضم الإفخارستيا في صلواتها (المسمَّاة: الأواشي) كل الأقطار وكل أجناس الخليقة من كل ما ينبت على الأرض من كل نبات، وكل ما يطير في الهواء ويدب على الأرض، ومن كل فئات الناس، فالخليقة كلها والعالم كله مرفوع بالصلوات والبخور، بل وكافة أرواح القديسين والملائكة تشترك في الصلاة في هذا السر، لأن الجميع داخل في صميم أبعاد الإفخارستيا!! **والإفخارستيا لأنها جسد المسيح ودمه أصبحت بالتالي تضم كل خليقة ما في السماء من فوق وما على الأرض** من تحت كقول المسيح:

+ «دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم. »(مت 28: 18و19)

Mat 28:18

فَتَقَدَّمَ يَسُوعُ وَكَلَّمَهُمْ قَائِلاً: «دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ

Mat 28:19

فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ.

وكقول الرسول بولس:

+ **«ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض في ذاك.»** (أف 1:10)

Eph 1:10

لِتَدْبِيرِ مِلْءِ الأَزْمِنَةِ، لِيَجْمَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، فِي ذَاكَ

وكل ما قلناه هنا ليس هو اجتهاداً منَّا، بل هو في الحقيقة من وحي وإحساس صلوات الإفخارستيا الأُولى ووضوحها وبساطتها المذهلة التي وصفها لنا القديس يوستين الشهيد، وأيضاً ما تكشفه لنا صلوات الإفخارستيا في كتاب «تعاليم الرسل وبقية الليتورجيات»، فإن صلوات الإفخارستيا في مضمونها الكلي هي توقيع دائم لمقاطع قانون الإيمان ومختصر لأعمال الله في العهدين،

فقد روعي فيها أن تكشف بترتيب وبدقة درجات عمل الله واستعلانه في الخليقة مبتدَءاً بالخَلْق، يصليها الكاهن بخشوع في تعبيرات كلها شكر وامتنان، ويقولها بلسان آدم المقْدِيِّ أو بروح الإنسان الخالد: «خلقتَ لي السماء سقفاً؛ وثبَّتَّ لي الأرض لأمشي عليها »

ثم مروراً بكل أعمال الله الحكيمة في الخليقة والفردوس: «أظهرتَ لي طبيعة الحيوان؛ وأخضعت كل شيء تحت قدميَّ » ثم غواية الحية، ثم سقوط آدم، وخروج قضية الموت، ثم إعطاء الناموس وظهور الأنبياء، واستعلان تدبيرات الله في القديم تمهيداً للخلاص: «رَبَطْتَنِي بكل الأودية المؤدية إلى الحياة »

وأخيراً استعلان تدبير تعطُّف الله بظهور يسوع المسيح، وأخبار التجسُّد والتأنُّس والخلاص وعمل الفداء الذي يبلغ القمة في ترديد كلمات المسيح التي قالها وقت العشاء على الخبز والخمر حسب وصيته: «اصنعوا هذا لذكري » ثم أخبار الآلام والصليب والقبر ونزول الجحيم والقيامة في اليوم الثالث. ثم الصعود والوعد بالمجيء الثاني من السماء لدينونة الأحياء والأموات وحياة الدهر الآتي. ثم تقديم الخبز والخمر للتقديس.

وأخيراً، وكختام لهذه الصلاة الإلهية، **تستدعى الكنيسة بفم الكاهن الروح القدس لتكميل سر التحوُّل حيث تصبح التقدمة إلهية فلا يعود يجوز الصلاة عليها، بل منها ينبثق التقديس ويُمنح، حيث يتم التجلّي فلا يعود يوجد على المذبح أرضيات تُخدَم بل سماويات مُعلَنة تؤكل بالسر ويُتعجب منها بالمجد!**

وهكذا، بتهليل وفرح مذهل وشكر فوق شكر، تنتهي الإفخارستيا بإحساس ما سينتهي إليه العالم في القيامة العتيدة عندما تتجلَّى الخليقة وعلى رأسها الإنسان، ويلبس الفاسد عدم فساد، ويُستعلن الله في الكل مالئاً الكل في الكل.

ويخرج المؤمنون من الكنيسة وكأنهم آتون وقادمون من السماء.

ولكن الذي استقر في الكنيسة على ممر الدهور هو أن كلمة «إفخارستيا »أصبحت محددة بسر الجسد والدم المقدَّسين، بكل ما يحويه هذا السر من معاني الشكر: قولاً وفكراً وعملاً على ما أولانا به المسيح من بركات الخليقة وتقديس وغفران وفداء وقيامة وثبوت واتحاد بطبيعته الإلهية ونوال روح الحياة بكل نعم ومواهب الروح القدس.

الإفخارستيا والإنسان الجديد



لقد كشف المسيح بكل وضوح عن طعام جديد روحاني يتعاطاه الإنسان الجديد المخلوق على صورة الله «في البر وقداسة الحق »(أف 24:4)، ليحيا به وتدوم حياته إلى الأبد، عِوَض الطعام المادي الذي يتعاطاه الإنسان العتيق ويموت. وقد أوضح المسيح ذلك في قوله:

+ «1. الحق الحق أقول لكم: مَنْ يؤمن بي فله حياة أبدية.

. أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المَنَّ في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء، لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت. أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إنْ أكل أحدٌ من هذا الخبز يحيا إلى الأبد.

3. والخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم. »(يو 6:47-51)

Joh 6:47

اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ.

Joh 6:48

أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ.

Joh 6:49

آبَاؤُكُمْ أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ وَمَاتُوا.

Joh 6:50

هَذَا هُوَ الْخُبْزُ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ لِكَيْ يَأْكُلَ مِنْهُ الإِنْسَانُ وَلاَ يَمُوتَ.

Joh 6:51

أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الْحَيُّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هَذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ. وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جَسَدِي الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ».

يتدرَّج المسيح في هذا القول بذِكْر الحقائق الآتية:

1 - إنَّ مَنْ يؤمن بالمسيح، ينال الحياة الأبدية، الذي يشرحه إنجيل القديس يوحنا في موضع آخر بقوله:

«الحق الحق أقول لكم: إنَّ مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة »(يو 5:24).

وهذا في الحقيقة هو حال الإنسان الجديد الذي سمع خبر البشارة، وآمن واعتمد للمسيح، ويكون هو الذي وُلِد ثانية من فوق ومن الماء والروح، وصار مهيَّأً لدخول ملكوت الله حسب كلام المسيح لنيقوديموس: «الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يُولَد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله. المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح. »(يو 3:5و6)

Joh 3:5

أَجَابَ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ.

Joh 3:6

اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ.

2 - يعود هنا المسيح ويقدِّم نفسه باعتباره الخبز الحي الجديد الذي نزل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت بعد، بل يحيا إلى الأبد حتى وإنْ مات بالجسد.

وواضح هنا أن الذي يغتذي بالمسيح هو الإنسان الجديد المخلوق جديداً **"من فوق" و"من الماء والروح"**، الذي خلقه المسيح في نفسه بقيامته من بين الأموات، **وننلاه بالإيمان والمعمودية.**

3 - عاد المسيح وحدَّد بوضوح شديد كيف سيُعطي نفسه خبزاً ليأكل منه الإنسان الجديد
ليحيا إلى الأبد بأن حدَّد أن الطعام الروحي للإنسان الجديد سيكون جسده الذي يبذله عن حياة ال عالم. وهنا يدخل المعنى في تصوير مستيكي أي سرِّي شديد الشفافية،
بمعنى أن **المسيح سيُقدِّم جسده على الصليب ذبيحة حيَّة مقدَّسة للآب عن خلاص العالم**.

3 - عاد المسيح وحدَّد بوضوح شديد كيف سيُعطي نفسه خبزاً ليأكل منه الإنسان الجديد
ليحيا إلى الأبد بأن حدَّد أن الطعام الروحي للإنسان الجديد سيكون جسده الذي يبذله عن حياة ال عالم. وهنا يدخل المعنى في تصوير مستيكي أي سرِّي شديد الشفافية، بمعنى أن **المسيح سيُقدِّم جسده على الصليب ذبيحة حيَّة مقدَّسة للآب عن خلاص العالم**.

وهذه الذبيحة الحيَّة المقدسة لكي يتم عملها في الإنسان، بإعطاء الخلاص والغفران والحياة والبر، يتحتَّم أن يأكل منها الإنسان لكي يكون شريكاً في فعلها الإلهي السرِّي الفائق.

ولكي يُعطي المسيح لكل إنسان الفرصة والحق ليأكل منها في كل مكان وإلى مدى جميع الأزمان، قام يوم الخميس المبارَك برسم طقس ذبح الجسد على العشاء الفصحي مع تلاميذه بأن أخذ خبزاً عادياً وشكر وبارك وكسر، وأعطى لتلاميذه برسم الجسد المكسور على الصليب يوم الجمعة قائلاً بسر رهيب: "هذا هو جسدي المكسور من أجلكم (على الصليب)، خذوا كلوا منه كلكم". ثم عاد وأخذ الكأس الرابع في طقس عشاء الفصح الممزوج خمراً وماءً، وشكر وبارك وأعطاه لتلاميذه قائلاً: "هذا هو دمي المسفوك من أجلكم (على الصليب)، اشربوا منه كلكم".

وهكذا حقَّق المسيح، بالفعل الإلهي السرِّي في الخبز والخمر، الوجود المستيكي الإلهي للجسد الحقيقي المذبوح على الصليب والدم المسفوك عليه.

وهكذا حقَّق المسيح بالفعل الإلهي السرِّي ذبيحته الفصحية بجسده بواسطة الخبز والخمر. حتى أن كل مَنْ أكل من هذا الخبز الفصحي السرِّي وهذا الخمر الفصحي السرِّي، يكون قد أكل بالفعل السرِّي المسيح نفسه في حالة الذبيحة الفصحية التي قدَّمها للآب لمغفرة الخطايا وحياة أبدية لكل مَنْ يتناول منه.

ثم عاد المسيح ليوثّق هذا الأكل والشرب الفصحي من جسده ودمه كعهدٍ أبدي معنا، فقال باختصار ووضوح:
«مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية، وأنا أُقيمه في اليوم الأخير »(يو 6:54).

ثم عاد المسيح ليوثّق هذا الأكل والشرب الفصحي من جسده ودمه كعهدٍ أبدي معنا، فقال باختصار ووضوح: «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية، وأنا أُقيمه في اليوم الأخير »(يو 54:6).

ولكي يرفع عن ظنِّ الإنسان أنه يأكل خبزاً ساذجاً وخمراً ممزوجاً ساذجاً، عاد فأكَّد: «لأن جسدي مأكلٌ حقٌّ ودمي مشربٌ حقٌّ »(يو 55:6).

والمعنى هنا عميق، إذ يفرِّق المسيح بين أكل الخبز الساذج وشرب الخمر الساذج، وبين أكل الجسد الإلهي وشرب الدم الإلهي.

فهنا الخبز الفصحي المتحوِّل إلى جسد المسيح الذي استودع فيه المسيح قوة وحياة جسد الكلمة المُحيي، لم يَعُدْ أكلاً ساذجاً يأكله الإنسان بالجسد ويموت، بل مأكلا حقًّا. و"الحق" هو ما لا يتغيَّر ولا يزول، والله وحده هو الذي لا يتغيَّر ولا يزول، بمعنى أن الذي يأكل الجسد ويشرب الدم الكائن بالقوة الإلهية في سرِّ الخبز المكسور والخمر الممزوج إنما "يأكل الحق" و"يشرب الحق"، وهو أعمق تعبير سرِّي عن استيعاب لاهوت المسيح الكائن في الجسد والدم الفصحي العامل لغفران الخطايا والحياة الأبدية، الذي عبَّر عنه المسيح بعد ذلك تعبيراً مُبدِعاً بقوله: «مَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (57:6)، الذي في صميم معناه قال بولس الرسول: «لا أحيا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ.» (غل 20:2)

Joh 6:57

كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ الْحَيُّ وَأَنَا حَيٌّ بِالآبِ فَمَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي.

Gal 2:20

مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لاَ أَنَا بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ. فَمَا أَحْيَاهُ الآنَ فِي الْجَسَدِ فَإِنَّمَا أَحْيَاهُ فِي الإِيمَانِ، إِيمَانِ ابْنِ اللهِ، الَّذِي أَحَبَّنِي وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِي.

وهكذا أعطى المسيح عهداً أبدياً موثَّقاً أن كل مَنْ يأكل من الخبز المكسور الفصحي والخمر الممزوج الفصحي، الذي نعبِّر عنه بسرِّ الإفخارستيا، يكون قد أكل المسيح بحال ذبيحة فصحية على الصليب، الذي صار ضميناً لخلاص الإنسان غفراناً وحياةً أبدية. لذلك يسمَّى خميس الفصح بـ "خميس العهد"، وهو العهد الجديد كقول المسيح العلني: "كذلك الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يُسفك من أجلكم." (لو 22:20)

كما أعطى المسيح استعلاناً جديداً لفاعلية الأكل من الجسد والشرب من الدم الفصحي بقوله: «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه »(يو 56:6). هذا الثبوت المتبادَل بالفعل السرِّي مع المسيح بواسطة الاشتراك في الجسد والدم، هو ما يُعبَّر عنه لاهوتياً بالاتحاد السرِّي. الذي عبَّر عنه القديس يوحنا في رسالته الأولى هكذا:

«أما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح »(1يو 3:1). كما عبَّر عنه المسيح بقوله: «أنتم فيَّ، وأنا فيكم »(يو 20:14)،

1Jo 1:3

الَّذِي رَأَيْنَاهُ وَسَمِعْنَاهُ نُخْبِرُكُمْ بِهِ، لِكَيْ يَكُونَ لَكُمْ أَيْضاً شَرِكَةٌ مَعَنَا. وَأَمَّا شَرِكَتُنَا نَحْنُ فَهِيَ مَعَ الآبِ وَمَعَ ابْنِهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ.

Joh 14:20

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا فِي أَبِي وَأَنْتُمْ فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ.

وقوله: «ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا... »(يو 21:17)، «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد. »(يو 23:17)

Joh 17:21
لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِداً كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي.

Joh 17:23
أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي.

بهذا ندرك **أن الطعام الجديد الروحي** الذي أحدره لنا المسيح من السماء كخبز حي إلهي، وهو جسده ليُطعم به الإنسان الجديد ليحيا وتدوم حياته إلى الأبد؛ هو جوهر العهد الجديد.

فنحن الذين أكلنا الجسد وشربنا الدم، دخلنا في صميم العهد الجديد وجوهره الذي صنعه الله الآب معنا بدم ابنه الوحيد الذي شربناه من يده، فتغلغل الابن في أحشائنا ودخلنا نحن في عمق أعماقه وصرنا في وحدة أمام عين الآب أهَّلتنا للبنوَّة وميراث الابن الوحيد.

فالإفخارستيا - طعام الحق هذا - للإنسان الجديد، قد رفعته من الأرض إلى السماء، ومن حال الخلقة الترابية التي تدبُّ على الأرض كإحدى الدبابات إلى وجود سمائي وكيان روحاني يتراءى أمام الله في حالٍ من البر والقداسة لمدح مجد نعمته التي أنعم بها علينا في المحبوب، وهذا كله كان حسب مسرَّة مشيئة الآب.

غير أن في المعمودية يخرج الإنسان الجديد بمفرده حاملاً المسيح فيه حسب قول بولس الرسول: «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع. لأن كلَّكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح »(غل 3:26)، «وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق »(أف 4:24).

Gal 3:26

لأَنَّكُمْ جَمِيعاً أَبْنَاءُ اللهِ بِالإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ.

Gal 3:27

لأَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ.

أما في سر الإفخارستيا فيخرج المؤمنون متَّحدين في شركة معاً ومع المسيح: «كأس البركة التي نُبارِكها، أليست هي شركة دم المسيح؟ الخبز الذي نكسره، أليس هو شركة جسد المسيح؟ فإننا نحن الكثيرين خبز واحد، جسد واحد، لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد. »(1كو 16:10و17)

1Co 10:16

كَأْسُ الْبَرَكَةِ الَّتِي نُبَارِكُهَا أَلَيْسَتْ هِيَ شَرِكَةَ دَمِ الْمَسِيحِ؟ الْخُبْزُ الَّذِي نَكْسِرُهُ أَلَيْسَ هُوَ شَرِكَةَ جَسَدِ الْمَسِيحِ؟

1Co 10:17

فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ وَاحِدٌ جَسَدٌ وَاحِدٌ لأَنَّنَا جَمِيعَنَا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ.

لهذا يُقال للمؤمن إنه عضو واحد متميِّز في جسد المسيح حسب موهبة الروح التي أخذها من الله ليخدم بها الجسد. ولكن يُقال عن المؤمنين معاً إنهم جسد المسيح الواحد أي كنيسته.

كذلك فإنسان المعمودية الجديد من فوق، هو روح ثابت لا يتغيَّر ولا يزول، على صورة خالقه. أما الإفخارستيا فهي سرُّ التجديد الدائم للإنسان، يتجدَّد فينا بقدر ما يَفْنَى الخارج يوماً فيوماً، حيث يتغيَّر الإنسان إلى صورة خالقه في المجد من مجدٍ إلى مجدٍ كما من الرب الروح، كلما أكلنا الجسد وشربنا الدم ودخلنا مجدَّداً في سرِّ الشركة مع المسيح وسلكنا بالروح.



دير القديس أنبا مقار

الإفخارستيا

عشاء الرب

بحث في الأصول الأُولى لليتورجيا ومدخل لشرح القداس وتطوُّره من القرن الأول حتى عصرنا الحاضر

للأب متى المسكين